

نظرات في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

وصيته صلى الله عليه وسلم بأهل مصر

جمال عبد الرحمن

إعداد

مَذْكُرْ، وَمَنْ قَرَأَ مِصْرَ بَغَيْرِ أَلْفٍ أَرَادَ مِصْرَ بَعِيْنَهَا، كَمَا قَالَ: «أَدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِيْنِ» وَلَمْ يُصِرْفَ لِأَنَّهُ اسْمُ الْمَدِيْنَةِ فَهُوَ مَذْكُرٌ سَمِّيَ بِهِ مُؤْتَتْ [تاج العروس للزبيدي المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٤ / ١٢٦].

أصل كلمة الأقباط وماذا تعني

في الصَّحاح: الْقَبْطُ: أَهْلُ مِصْرَ، وَاجْتَلَفَ فِي نَسَبِ الْقَبْطِ فَقِيلَ: هُوَ الْقَبْطُ بْنُ حَامَ بْنِ نُوحٍ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي الْمَقْدَمَةِ الْفَاضِلِيَّةِ لِابْنِ الْجَوَانِي النَّسَابَةِ، عِنْدَ ذِكْرِ نَسَبِ الْقَبْطِ مَا نَصَّه: وَذَكَرَ أَبُو هَاشِمٍ أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ الْعَبَّاسِيُّ الصَّالِحِيُّ النَّسَابَةَ قَبْطُ مِصْرَ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: هُمْ وَلَدُ قَبْطُ بْنُ مِصْرَ بْنِ قُوطَ بْنِ حَامَ بْنِ نُوحٍ، وَأَنَّ مِصْرَ هَذَا هُوَ الَّذِي سَمَّيَتْ مِصْرَ بِاسْمِهِ. وَذَكَرَ شَيْخُ التَّوَارِيخِ وَغَيْرُهُمْ أَنَّ الَّذِي سَمَّيَتْ مِصْرَ بِهِ هُوَ مِصْرُ بْنُ بَيْصَرَ بْنِ حَامَ بْنِ نُوحٍ، وَهُوَ أَبُو قَبْطِيمَ بْنِ مِصْرَ، وَإِلَيْهِ يُنْسَبُ الْقَبْطُ. وَإِلَيْهِمْ تُنْسَبُ الْغِيَابُ الْقَبْطِيَّةُ. [تاج العروس ٢٠ / ٥].

قال ابن خلدون: ثم غلب الروم على مصر والشام وأبقوا القبط في ملكها وصرفوه في الولاية بمصر إلى أن جاء الله بالإسلام، وصاحب القبط بمصر والإسكندرية المقوقس، واسمه جريج بن مينا فيما نقله السهيلي. فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبي بلتعة، وجبرا مولى أبي رهم الغفاري، فقارب الإسلام وأهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هديته المعروفة ذكرها، فيها البغلة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركبها وتسمى ذئبل، والحصار الذي يسمى يعفور، ومارية القبطية أم ولده إبراهيم وأمه وأختها سيرين وهبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت، فولدت له عبد الرحمن، وقدح من قوارير كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب فيه، وعسل استظرفه له من بنها إحدى قرى مصر معروفة بالعسل الطيب. ويقال إن هرقل لما بلغه شأن هذه الهدية اتهمه بالميل إلى الإسلام فعزله عن رئاسة القبط. [تاريخ ابن خلدون ٢ / ٨٨].

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى في هَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ: لَمَّا تَمَادَى قَبْطُ مِصْرَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعَتُوهُمْ

الحمد لله الذي فاوت بين العباد، وفضل بعض خلقه على بعض حتى في الأمكنة والبلاد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح من نطق بالضاد، وعلى آله وصحبه السادة الأمجاد وبعد...

فإن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم لم يرحل عن هذه الدنيا حتى استودع الناس وصية من أعظم الوصايا، وبشرهم ببشرى تسعد لها القلوب وتبرق الثنايا؛ فقال لهم: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً؛ فإذا رأيتم رجلين يقتتلان على موضع لبنة، فاحرج منها». فمر أبو ذر بريعة وعبد الرحمن بن شرجيل بن حسنة وهما يتنازعان في موضع لبنة، فخرج منها. [رواه مسلم]. وحقا تحققت بشراه، وصدقت نبوءته، وفتحت مصر المحروسة.

مصر في اللغة وأصل تسميتها بذلك

أصل كلمة مصر من الفعل مَصَرَ مِصْرَ الشاةَ والناقةَ يَمَصُّهَا مِصْرًا وَيَمَصُّرُهَا: حَلَبَهَا بِأَطْرَافِ الْأَصَابِعِ الثَّلَاثِ، وَقِيلَ: هُوَ أَنْ تَأْخُذَ الضَّرْعَ بِكَفِّكَ وَتُصِيرَ إِبْهَامَكَ فَوْقَ أَصَابِعِكَ، وَقِيلَ: هُوَ الْحَلْبُ بِالْإِبْهَامِ وَالسَّبَابَةِ فَقَطْ. [لسان العرب ٥ / ١٧٥].

قال الزبيدي: قَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْخَطَّابِ بْنِ دِحْيَةَ: مِصْرُ أَخْصَبَ بِلَادِ اللَّهِ، وَسَمَّاها اللَّهُ تَعَالَى بِمِصْرَ وَهِيَ هَذِهِ دُونُ غَيْرِهَا، وَمَنْ أَسَمَّاها أُمُّ الْبِلَادِ، وَالْأَرْضُ الْمُبَارَكَةُ، وَغَوَتْ الْعِبَادُ، وَأُمُّ خَنُورٍ، وَتَفْسِيرُهُ: النِّعْمَةُ الْكَثِيرَةُ، وَذَلِكَ لِمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرَاتِ الَّتِي لَا تُوْجَدُ فِي غَيْرِهَا، وَسَاكِنُهَا لَا يَخْلُو مِنْ خَيْرٍ يَدِرُّ عَلَيْهِ فِيهَا، فَكَانَتْ الْبَقَرَةُ الْحَلُوبُ النَّاغَةَ.

وقال: سَمَّيَتْ بِذَلِكَ لِمَصْرُهَا أَيْ تَمَدُّنُهَا، أَوْ لِأَنَّهُ بَنَاهَا الْمِصْرُ بْنُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَمَّيَتْ بِهِ، ... وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْخَطَّابِ بْنِ دِحْيَةَ.

وهي تصرف وقد لا تصرف، وتؤنث. وقد تُذَكَّرُ، عَنْ ابْنِ السَّرَّاجِ. قَالَ سَيِّدِي: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَمِيطُوا مِصْرًا» قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: الْأَكْثَرُ فِي الْقِرَاءَةِ إِبْثَاتِ الْأَلْفِ، قَالَ: وَفِيهِ وَجْهَانِ جَائِزَانِ، يُرَادُ بِهَا مِصْرُ مِنَ الْأَمْصَارِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي تِيهِ، قَالَ وَجَائِزُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ مِصْرَ بَعِيْنَهَا، فَجَعَلَ مِصْرًا اسْمًا لِلْبِلَدِ، فَصِرْفَ لِأَنَّهُ

من الولاة والخلفاء والملوك والسلاطين؛ من فتحوا ابوابهم للوافدين، واستمعوا إلى الشعراء والمادحين، واجازوا على التأليف والتصنيف، وقاموا في بناء الحضارة الإسلامية بأوفى نصيب.

بل إن مصر كانت -وما زالت- حامية الملة والدين، وراعية الإسلام والمسلمين، وقاهرة الغزاة والمعتدين؛ مما جعلها أعز مكان في الوطن العربي الكبير.

فكان من حق هذا الإقليم أن يشغل مكانه في التاريخ، وأن يُخص بعناية العلماء والمؤرخين، وأن تُقرد لوصف ملامحه المؤلفات، وأن يُتدارس تاريخه في كل مكان وزمان.

فضل مصر

قال أبو عمرو الكندي: فضل الله مصر على سائر البلدان، كما فضل بعض الناس على بعض، والأيام والليالي بعضها على بعض، والفضل على ضربين: في دين أو دنيا، أو فيهما جميعا، وقد فضل الله مصر وشهد لها في كتابه بالكرم وعظم المنزلة وذكرها باسمها وخصها دون غيرها، وكرر ذكرها، وأبان فضلها في آيات من القرآن العظيم، تنبئ عن مصر وأحوالها، وأحوال الأنبياء بها، والأمم الخالية والملوك الماضية، والآيات البينات، يشهد لها بذلك القرآن، وكفى به شهيدا، ومع ذلك روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في مصر وفي عجمها خاصة وذكره لقرباته ورحمهم ومباركته عليهم وعلى بلدهم وحثه على برهم ما لم يُرو عنه في قوم من العجم غيرهم. [فضائل مصر المحروسة ص: ١]

ذكر مصر في القرآن الكريم:

ذُكرت مصر في القرآن في أكثر من ثلاثين موضعا. منها خمسة مواضع باسم مصر تصريحًا: قال الله تعالى: «أَهْطَأْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا مَآسَاكُنًا» [البقرة: ٦١]، وقرأ: «أَهْطَأْ مِصْرًا» بلا تنوين، فعلى هذا هي مصر المعروفة قطعًا، وعلى قراءة التنوين، يحمل ذلك على الصرف اعتبارًا بالمكان؛ كما هو المقرر في العربية في جميع أسماء البلاد، وأنها تذكر وتؤنث، وتصرف وتمنع. وقد أخرج ابن جرير في تفسيره عن أبي العالية في قوله: «أَهْطَأْ مِصْرًا» قال: يعني مصر فرعون.

وقال تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَ مِصْرَ يَبُوتَا» [يونس: ٨٧].

وقال تعالى: «وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا تُعْرِبْنِي أَكْرِمِي مُرْتَبَهُ» [يوسف: ٢١]. وقال تعالى حكاية عن يوسف عليه الصلاة والسلام: «أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ

وَعَنَادِهِمْ، مُتَابِعَةً لِّلْكَهْمِ فِرْعَوْنَ، وَمُخَالَفَةً لِّنَبِيِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِيمِهِ مُوسَىٰ بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَقَامَ اللَّهُ عَلَىٰ أَهْلِ مِصْرَ الْحَجَّ الْعَظِيمَةَ الْقَاهِرَةَ، وَأَرَاهُمْ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ مَا بَهَّرَ الْأَبْصَارَ وَخَيَّرَ الْعُقُولَ..... حتى آمن منهم؛ قبل ثلاثة وهُمْ امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وَالرَّجُلُ النَّاصِحُ، الَّذِي جَاءَ يَسْعَىٰ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ فَقَالَ: «يَمُوسَىٰ إِنَّكَ أَمْسَلًا يَأْتِمِرُونَ بِكَ لِقَتْلُكَ فَخَرَجَ إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّصِيحِينَ» [القصص: ٢٠] قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبي خاتم عنه ومُرواهُ غَيْرُ السَّحَرَةِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْقِبْطِ، وَقِيلَ بِلِ أَمِنْ طَائِفَةٍ مِنَ الْقِبْطِ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَالسَّحَرَةِ كُلِّهِمْ وَجَمِيعُ شَعْبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَيَدُلُّ عَلَىٰ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: «فَمَا ءَمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَكَالِ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَكِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ» [يونس: ٨٣] فَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ «إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ» عَائِدٌ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ لِأَنَّ السَّبَاقَ يَدُلُّ عَلَيْهِ. [البداية والنهاية ط إحياء التراث ١/ ٣١١].

مما سبق يتبين أن الأقباط هم أهل مصر أجمعين أيًا كانت توجهاتهم، وقبل دخول الإسلام إلى مصر كانت كلمة «قبط» تدل على أهل مصر دون أن يكون للمعتقد الديني أثر على ذلك، إلا أنه بسبب كون المسيحية كانت الديانة السائدة بين المصريين وقت دخول العرب المسلمين مصر، وتميُّز الفاتحين ومن أسلم من الأقباط باسم المسلمين، فأنحصرت كلمة قبطي منذ ذلك الحين لتشير للمسيحيين في مصر.

ويعتبر دخول العرب مصر سنة ٢٠ من الهجرة على يد الصحابي الجليل عمرو بن العاص مولد تاريخ جديد لهذه البلاد، ذات الماضي البعيد، فلم يكد يتم الفتح، وتستقر الأحوال بها بعد الوقائع الحربية المعروفة، حتى أخذ سكانها يدخلون في دين الله أفواجًا، وتشرح صدورهم للقرآن الكريم، وتصطنع السننهم اللسان العربي المبين؛ وتصبح العربية لغة الدواوين. ثم يرحل إليها أعيان الصحابة وجل التابعين، ويهوي نحوها الفقهاء والقراء وحفاظ الحديث ورواة اللغة والأدب والشعر، وتبنى فيها المساجد؛ لإقامة شعائر العبادات. ومدارسة علوم الدين، وللفضل في ساحتها بين الناس، كما أنشئت فيها المدارس لتلقي العلوم والمعارف، والحققت به خزان الكتب؛ لجذب العلماء من شتى الجهات؛ مما ارتفع به شأن العلم، وازدهرت الفنون والآداب. وتولى مقاليد الحكم فيها على مر العصور

«أَمِينٌ» [يوسف: ٩٩].

وقال تعالى حكاية عن فرعون: «أَلَيْسَ لِي مَلِكٌ وَصَرُّ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي» [الزخرف: ٥١].

وأما ذكره سبحانه وتعالى لها كناية وإشارة فكما في قوله تعالى: «إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا» [الأعراف: ١٢٣]. فالمدينة هنا هي مصر.

وقال تعالى: «وَقَالَ يَسُوؤُ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا» [يوسف: ٣٠]. والمدينة هنا مصر.

وقال تعالى: «وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا» [القصص: ١٥]. وهي مصر.

ومثله قوله تعالى: «فَاصْبِرْ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ» [القصص: ١٨].

وقال تعالى: «وَمَاءٌ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى» [القصص: ٢٠]، أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن السدي أن المدينة في هذه الآية منف، وكان فرعون بها.

كما أشير إليها بلفظ الأرض كما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه الصلاة والسلام: «قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ» [يوسف: ٥٥]، أخرج ابن جرير، عن ابن زيد في الآية، قال: كان لفرعون خزائن كثيرة بارض مصر، فاسلمها لسلطانه إليه.

وقال تعالى: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ» [يوسف: ٥٦]، أخرج ابن جرير، عن السدي في الآية قال: استعمله الملك على مصر، وكان صاحب أمرها.

وقال تعالى في أول السورة: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» [يوسف: ٢١].

وقال تعالى: «فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي» [يوسف: ٨٠]، قال ابن جرير: أي لن أفرق الأرض التي أنا بها - وهي مصر - حتى يأذن لي أبي بالخروج منها.

وقال تعالى: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ» [القصص: ٤].

وقال تعالى: «وَرِيدٌ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَيَعْلَمَهُمْ أَمَنَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ» [يوسف: ٥٠]، [القصص: ٥].

وقال تعالى: «إِنْ تُرِيدُوا إِلَّا أَنْ تَكُونُوا جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ» [القصص: ١٩].

وقال تعالى: «لَكُمْ أَلْمَافُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ»

[غافر: ٢٩].

وقال تعالى: «أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ» [غافر: ٢٦].

وقال تعالى: «أَنْذَرْتُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ» [الأعراف: ١٢٧]، إلى قوله:

«إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» [الأعراف: ١٢٨]، إلى قوله: «قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ» [الأعراف: ١٢٩].

المراد بالأرض في هذه الآيات كلها مصر.

وقال تعالى: «وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا أَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ» [الأعراف: ١٣٧]؛ قال الليث بن سعد: هي مصر؛

بارك فيها بالنيل. حكاه أبو حيان في تفسيره.

وقال القرطبي في هذه الآية: الظاهر أنهم ورثوا أرض القبط. وقيل: هي أرض الشام ومصر؛ قاله ابن إسحاق وقتادة وغيرهما.

وقال تعالى في سورتي الأعراف والشعراء: «يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ» [الأعراف: ١١٠].

وقال تعالى: «فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ» [الشعراء: ٥٧-٥٨].

وقال تعالى: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ» [الزمر: ١٥] و«وَمَقَامُ كَرِيمٍ» [الدخان: ٢٥-٢٦]؛ قال الكندي: لا يعلم

بلد في أقطار الأرض أشنى الله عليه في القرآن بمثل هذا الثناء، ولا وصفه بمثل هذا الوصف، ولا شهد له بالكرم غير مصر.

وقال تعالى: «وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صَدِيقٍ» [يونس: ٩٣]، أورده ابن زولاقي. وقال القرطبي في

تفسيره: أي منزل صدق محمود مختار - يعني مصر. وقال الضحاك: هي مصر والشام.

وقال تعالى: «كَمَثَلِ جَحْشِمٍ بَرَنُوءَ» [البقرة: ٢٦٥]، أورده ابن زولاقي وقال: الرُّبَا لا تكون إلا بمصر.

قال تعالى: «أَلَمْ تَرَ يَوْمًا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجَرِيءِ» [السجدة: ٢٧]. قال قوم: هي مصر، وقواه ابن كثير في تفسيره.

وقال تعالى: «وَقَدَرْنَا فِيهَا أَقْوَمَتَهَا» [فصلت: ١٠]، قال

عكرمة: منها القراطيس التي بمصر.

وقال تعالى: «إِذْ دَنَاتِ الْوَيْلَامُ» [الأنعام: ٧] التي لم يَخْلُقْ مثْلها في

الْبَلَدِ [الفجر: ٧-٨]. قال محمد بن كعب القرظي: هي الإسكندرية.

[حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١/ ١٨ للسيوطي].

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.